الأدب الإسلامي و أمة التحديات

للأستاذ الدكتور عبدالقدوس أبو صالح
رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية

لقد وضعت في العصر الحديث نظريات كثيرة في تفسير التاريخ ونشأة الحضارات ، وكان من أشهر هذه النظريات "نظرية التحدي" التي قال بها المؤرخ الفيلسوف" توينبي".

وهذه النظرية أصدق ما تكون على تاريخ الأمة الإسلامية الذي يمثل سلسلة من التحديات المتلاصقة أو المتداخلة في بعض الأحيان.

ولقد كان المسلمون يتعرضون في كل هذه التحديات إلى محنة قوية، تكاد تزلزل كيانهم، أو يتخبطون في تيه لا يكادون يجدون لهم مخرجاً منه ، أو يجابهون غزواً ساحقاً من أمم شديدة البأس... حتى إذا بلغ السيل الزبى وبلغت القلوب الحناجر واستحكم اليأس والذل لجأ المسلمون إلى دينهم واعتصموا به فأمدّهم بالقدرة على دفع التحدي الذي يجابههم ، مهما كان شأنه ، ومهما تطاول أمده.

ولعل من أول التحديات المعاصرة التي جابهها المسلمون هو التحدي العسكري الذي رده المسلمون بالدماء والشهداء ، ثم كان

التحدي العقدي الذي رده المسلمون بمئات الكتب وآلاف البحوث ، مما كون مكتبة كاملة للفكر الإسلامي وردوده على مزاعم المستشرقين وشبهات الملحدين والعلمانيين، ثم جاء أخيراً التحدي الفني الذي رد عليه بالدعوة إلى نظرية الأدب الإسلامي.

ولقد كان من الطبيعي كما يقول الأستاذ محمد قطب أن يتأخر الرد على التحدي الفني لأن الأمة بادرت أول الأمر إلى دفع التحدي العسكري والاستيطاني الذي جثم فيه الاستعمار على صدر الأمة وجنى خيراتها ، ثم التفتت للرد على التحدي العقائدي غيرة على دينها ، ثم عمدت إلى رد التحدي الاقتصادي حرصاً على أن يكون طعامها ومعاشها حلالاً، وانتهت بالرد على التحدي الفني حماية لتراثها وذاتيتها وهوّيتها ولغة قرآنها.

ولقد تبنت رابطة الأدب الإسلامي العالمية دفع التحدي الفني بالدعوة إلى مذهب الأدب الإسلامي وصياغة نظرية متكاملة له، تقف أمام المذاهب والنظريات الأدبية العالمية شاهدة عليها و دافعة لتياراتها ومقدمة البديل الإسلامي عنها.

ولقد كان من أهم مسوغات الدعوة إلى مذهب الأدب الإسلامي وإقامة نظرية متكاملة له العوامل التالية:

١ – أهمية الأدب و تأثيره:

وهنا أقول لكل ملتزم بالإسلام ولكل داعية إسلامي : لقد ذهب العصر الذي كان فيه الأدب ألهية فنية وترفاً فكرياً بانقضاء عهود التكسب بالشعر ، وهي عهود قديمة ، وبسقوط مذهب الفن للفن وهو مذهب حديث. وأصبح اليوم كما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أداة

بل سلاحاً للدفاع عن الإسلام والحض على الجهاد وصياغة الوجدان ورفع مستوى المسلمين رجالاً ونساء... وشباباً وأطفالاً ، بما تملكه الكلمة الأدبية الأصيلة الهادفة من قدرة على التأثير في القلوب والعقول في آن واحد.

والأدب اليوم- كما يقول الأستاذ محمد قطب- سلاح يستغله أعداء الإسلام في إفساد الأجيال و إشاعة الانحلال.. فما أجدرنا أن نستعمله في الدفاع عن الإسلام وبناء الأجيال.

وما من مذهب فكري منحرف إلا استعمل الأدب وسيلة لنشر آرائه، وحشد الأتباع حوله حتى كان من قول سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله: " إن العالم اليوم يحكمه القلم ، وتحكمه الكلمة".

والكتاب العلمي أو الكتاب الفكري و إن كان إسلامياً فإن قراءه محدودو العدد ، أما الشعر والقصة التمثيلية والمسلسلة المرئيتان أو المسموعتان، فلا يكاد جمهورها يحد ، وهو جمهور من مختلف الطبقات والأعمار.

وإذا كان الكتاب الفكري يخاطب العقل فيقنع أو لا يقنع ، فإن الكتاب الأدبي من شعر أو قصة أو مسرحية مقروءة أو مذاعة أو متلفزة... يؤثّر في الوجدان تأثيراً خفياً لا يكاد يُحَسّ ، ولكن هذا التأثير ما يزال يتغلغل في الوجدان، حتى يتمكن منه ، ثم يؤثر في الفكر و يصوغ الشخصية صياغة خير أو شرّ.

٢- تيار التغريب:

ذلك أن الأدب الإسلامي يمثل ردة فعل ضد تيار التغريب الذي تناول شعوب العالم الإسلامي بأسرها ، وبلغ من خطورته أن الدكتور طه حسين الذي لقب بعميد الأدب العربي قاد تيار التغريب في العالم العربي ألف كتاباً باسم " مستقبل الثقافة في مصر" ومضى يدعو فيه إلى الأخذ بالحضارة الغربية بكل ما فيها ويقول بضرورة" أن نسير مسيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً- كما يقول بالحرف الواحد- ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، حلوها و مرها ، وما يُحبّ منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب،" وحقاً إنه " مستوى فكري نازل : كما يصفه الأستاذ أبو الحسن الندوي، وقد تصدى لهذا التيار عدد كبير من الأدباء الإسلاميين ، وكان في مقدمتهم شاعر الإسلام الكبير محمد إقبال الذي كان من قوله مخاطباً أحد المتفرنجين: "ليس وجودك إلا تجلي الإفرنج لأنك بناء قد بنوه ، وهذا الجسم فارغ من معرفة النفس ، فأنت غمد محلّى بغير سيف ، وجود الله غير ثابت في نظرك ، ووجودك أنت غير ثابت في نظري". ويخاطب إقبال أحد المربين قائلاً: " علّم طلابك معنى الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية ، علمهم كيف يشقون الصخور ، ويدكون الجبال ، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج".

٣- واقع الأدب في العالم الإسلامي:

والأدب الإسلامي هو الذي يستطيع أن ينقذ الأدب في العالم الإسلامي من وهدة التقليد والتبعية والفوضى ، لأن هذا الأدب أدب مزوّر يعيش اليوم بلا هدف ولا غاية ولا ذاتية ولا قواعد ولا منهج مرسوم.

وقد أصبح كثير من النتاج الأدبي المعاصر في العالم الإسلامي يقوم على مهاجمة العقيدة الإسلامية صراحة ، وعلى التهجم على الذات الإلهية ، وعلى تصوير الإسلام مرادفاً للتخلف ، وعلى مجاراة الثورة الجنسية في العالم. ثم جاءت الحداثة الفكرية الشاملة التي بيّن الناقد الإسلامي الكبير محمد مصطفى هدارة خطرها الماحق إذ قرّر أنها " في الحقيقة أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية ، وكل ما عرفته البشرية من مذاهب و اتجاهات هدامة ، ذلك أنها تتضمن كل هذه المذاهب والاتجاهات ، وهي لا تخصّ مجالات الإبداع الفني أو النقد الأدبي ، ولكنها تعم الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء" (١).

٤- أدب عقدي لمليار مسلم:

والإسلام عقيدة متميزة لنحو أكثر من مليار مسلم... وينبثق عن هذه العقيدة تصور إسلامي كامل للكون والحياة والإنسان. والأمة الإسلامية أمة متميزة" وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" (٢) فما بالنا نتدنى عن هذه الدرجة الرفيعة حتى نتسوّل سموم الجاهلية ، ونتسوّل فتات الغرب ومذاهبه؟ وعزة المسلم تأبى هذا التدنّي والتسوّل، لا في السياسة والاقتصاد فحسب ، بل في الفن والأدب وفي كل شيء... وإذا كان الأدب- كما يقول الدكتور أحمد محمد علي- تجسيداً لعواطف الأمة ومشاعرها و أحاسيسها وتصوراتها وأخيلتها فإنه في المجتمع الإسلامي لابد أن يكون إسلامياً ، وإلا كان المجتمع زائفاً إما في إسلامه وإما في أدبه ، أو على أقل تقدير يكون مصاباً بمرض الانفصام ما بين عقله و وجدانه(٢)

ومن هنا قامت رابطة الأدب الإسلامي العالمية تدعو إلى الأدب الإسلامي ، وتعنى به مذهباً أدبياً ونظرية عالمية ، خصائصه الفكرية والفنية تعبر عن شخصية الأمة الإسلامية وتراثها العظيم ، وقاعدته الفكرية التى ينطلق منها هي الإسلام ، وهو أرقى وأشمل و أكمل في نظرته إلى الكون والحياة والإنسان من كل الفلسفات المثالية والعقلية والمادية التي قامت عليها المذاهب والنظريات الأدبية العالمية ، وهذا الأدب الإسلامي لا ينبع من تعصب ديني أو فكري ، ولا يؤمن بالمفارقة بين ما تدعو إليه العقيدة من التزام ديني وبين ما يدعو إليه الفن من انطلاق و تحرّر لتحقيق الجمال الفني ومتعة الذوق (٣).

وقد عرّفت رابطة الأدب الإسلامي العالمية هذا الأدب بأنه " التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي ". وبناء على هذا التعريف قام النقد الأدبي الإسلامي يقسم النتاج الأدبي أياً كان نوعه إلى دوائر ثلاث ، هي دائرة الأدب الإسلامي ، و دائرة الأدب الحيادي و دائرة الأدب المضاد.

وقام النقاد الإسلاميون بتأليف عشرات الكتب ومئات البحوث عن الأدب الإسلامي مذهباً ونظرية مما هيأ لإقامة مكتبة خاصة بالأدب الإسلامي.

وأقامت رابطة الأدب الإسلامي نحو تسعة مكاتب رئيسية وإقليمية منتشرة في أنحاء العالم العربي والإسلامي ، وفي كل من المملكة العربية السعودية و مصر والمغرب والأردن و تركيا وماليزيا وبنغلاديش والهند وباكستان التي يرأس مكتبها الإقليمي العالم الجليل الدكتور ظهور أحمد

أظهر ، كما أصدرت الرابطة نحواً من سبع مجلات ثلاث منها باللغة العربية وثنتان بالأوردية و واحدة بالبنغالية و أخرى باللغة التركية.

و أخيراً اسمحوا لي يا شعب باكستان ياشعب الدولة الطاهرة كما يدل اسم دولتكم أن أذكركم بما قاله محمد علي جناح أول رئيس لدولتكم الإسلامية :" إن دولة باكستان قامت في شعر إقبال قبل أن تقوم في واقع الزمان أوالمكان" وأنا أقول لكم: إن الأدب الإسلامي يحقق للمسلمين في باكستان وغيرها وسيلة توحد صفوف الأمة ، وتعيدها إلى الإسلام من جديد ، فالأدب الإسلامي يحقق لأمة الإسلام ما عجزت السياسة عن تحقيقه، وهو الطريق المستقيم لتحقيق الوحدة الإسلامية بناء على ما يؤكده من وحدة العقيدة ومن وحدة الآلام والآمال والمصير المشترك.

فيا أدباء الإسلام في باكستان: لقد آن لكم أن تسارعوا إلى الانضواء تحت راية الأدب الإسلامي ، التي ينبغي أن ترتفع خفاقة عالية على سائر الجمعيات والأحزاب الإسلامية ، وأن تسعوا إلى إقرار مادة الأدب الإسلامي في سائر الجامعات والمعاهد العليا ، وأن تعملوا على ترسيخ الأدب الإسلامي في الساحة الأدبية محلياً وعالمياً ، وأن تكونوا صفاً واحداً للوقوف مع الأدباء الإسلاميين في أنحاء العالم الإسلامي أمام المذاهب الأدبية المنحرفة والنظريات العالمية البعيدة عن منهج الله، وبذلك تردون التحدي الفني ، وتثبتون أنكم جديرون بالانتماء إلى أمة الإسلام أمة التحديات.

هوامش

١- محاضرة بعنوان "الحداثة والتراث" للدكتور محمد مصطفى هدارة ص٢ محاضرات مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية بالرياض.

٢- سورة البقرة- ١٤٣/١

٣- كتاب "الأدب الإسلامي ضرورة "للدكتور أحمد محمد علي- نشر رابطة الجامعات الإسلامية- القاهرة ١٤١١هـ /١٩٩١م.

٤- محاضرة "التغريب وأثره في الشعر العربي الحديث "للدكتور محمد مصطفى هدارة ص٩ من محاضرات رابطة الأدب الإسلامي (مكتب القاهرة).